كلمة الأستاذ الدكتور عادل العوا
في حفل تأبين المرحوم الدكتور بديع الكسم

أخي البديع!

يا غائباً لا يغيب!

ما كنتُ إخالني يوماً أنني أقف إياك راثياً، وبك معزّياً. ولم يكن ليدور في خلدي ألاّ تظل جامع شمل أحبابك وأصدقائك، وأهلك وطلابك، يضمهم أُنسك وبشرك، ويجتذبهم صفاؤك ومثاليتك، وتبهرهم ملاحظك وتدقيقاتك، فتفتنهم أحكامك وآراؤك، حتى إذا جئتَ بنقد أمور أو أشخاص، ولو أردته نقداً حاداً مفزِعاً، وجده السامعون برداً وسلاماً، وتلقوه في نفوسهم صواباً حلواً محبّباً صادقاً، نزيهاً موضوعياً، فيه الرأي السديد، كامل النضج بنفاذ البصيرة والأناة، وليس فيه للهوى والشطط مكان، ولا إمكان.

لن أطيل الكلام. فالموقف موقف شعور عميق، وحزن غامر، وأسى بليغ، وألم فراق غالب مستديم. وأكثر ما أقول هنا ملامح ذكريات جامعية، وسيكون في غير هذا المقام مجال تحليل أفكارك، وعرض فلسفتك ومذهبك، وقد قلتَ مرة «إن الفلاسفة لا يملكون عقلاً واحداً، وإن كل فرد منهم ذو عقل شخصي يخصّه ولا يخصّ غيره... وإن المعاني التي تدل عليها الألفاظ الفلسفية هي إبداع شخصي لا يخصّ إلا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صاحبه»[١]. فهل بعد هذا الإعلان سوى ترك الأصالة للأصيل؟.

إنني أحفظ عن خلقك ومزاجك أنك - بكل صدق ودقة - الأفضل فضيلة، والأكرم سجية، والأنقى طبعاً وشيما. وإني لأشهد شهادة يقين متين تمتد من أربعينات القرن العشرين، حتى مستهل هذا القرن الجديد، أنني ما سمعتك تذكر كلمة نابية، ولا نعتاً شائناً مذِلاً، توجهه إلى أحد، أو تصِم به أحداً، غائباً كان أو حاضراً، وأنت ترى الناس والأحداث، وتدرك السطور وما بين السطور وفي غضونها ما يثير ويغيظ حتى اليأس والقنوط.

أجل، إنك تهزأ ضاحكاً راحماً الجهل والغباء، فعل أبي العلاء، ومن ذلك حال الإداري الكبير الذي حضر طرفاً من تدريسك المنطق في إحدى ثانويات اللاذقية وسأل عنك بإعجاب: مَن هذا الأستاذ الشاب الذي يدرّس الرياضيات؟.

أجل يا أخي بديع. إن منطقك رياضيات، لأن حياتك كلها أردتَها منطقاً، وأردتَها منطق رياضيات، لأن الرياضيات تمثل ذروة الدقة والتجرد والموضوعية وكأنك المنطقي ولادةً، والمنطقي قناعة، والمنطقي إرادة، ورياضياتك المنطقية رياضة صدق وإخلاص، وعفّ لسان وإحسان إلى الناس.

لقد قيل: أيُفتى ومالكٌ في المدينة؟ هكذا بديع الكسم إمام المنطق في جامعتنا وإمام المنطق في مدينتنا، هذه المدينة الأم العريقة الماجدة.

---

(١) محاضرات المجمع في الدورة المجمعية ١٩٩٢-١٩٩٣: لغة الفلسفة ص٧١.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أليس هو معلم المنطق ومرشد مريديه الفلاسفة العرب الناشئين المنتشرين في الأقطار العربية طلاباً له، آخذين عنه، ومأذونين منه، في الأردن ولبنان والجزائر وليبيا والمغرب الأقصى وسواها، وكان إيمانه الأوفى بأنه ينشئ النفوس، ويولّد العقول، وهذا ما نعرف عن إمام الفلاسفة (سقراط)..

كان (سقراط)، بهذه المناسبة، يعتمد الحوار سبيلاً للتفلسف وتعليم الفلسفة. ولكن الأستاذ بديع الكسم تجاوز في تعليمه الحوار أسلوباً إلى تيسير الدراسة والبحث الفلسفيين بوجه عام، فكان المساعد الأجود، والمسعِف الأكرم، يمدّ يد العون لكل عاشق بحث من الطلاب ومن أساتذة الطلاب سواء بسواء. ارجعوا إلى طلابه وزملائه وإخوانه المدرسين في كلية الآداب، عامة، وفي أكثر من قسم الدراسات الفلسفية، كما في أقسام التاريخ والإعلام واللغة العربية وما إليها...

ذلك أنه ما إن يطرأ بحث جديد في فكر باحث جديد، أو فكر معلم عازه مرجع أو مصدر أو موسوعة ومعجم، حتى أجدني قائلاً له، وعلى الدوام، وباطراد، عليك بالدكتور بديع، فلديه الخبر اليقين، والرفد الكريم. إنك واجد عنده ما لا تجده إلا عنده مما يفيدك.. ولكن احذر:

فلو لم يكن في كفّه غير نفسه لجاد بها، فليتقِ اللهَ سائله

رغبتُ في منتصف الستينات بترجمة كتاب «العقل والمعايير» لشيخ الفلاسفة الفرنسيين في عصره (اندره لالاند)، وكان ممن عُني بنقل بعض آثاره إلى العربية أساتذة مصريون بمراجعة من الدكتور (طه حسين).

كانت لدي الطبعة الأولى من الكتاب. وقد رجعت رجوعي الأليف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى الزميل (بديع) فكان أن هداني إلى وجود طبعة لاحقة مزيدة ببحث كامل عن «قيمة الفارق غير المباشر». وكان أن ذكرت في مقدمة ترجمتي المنشورة سنة ١٩٦٦ ما يلي: «وقد تفضل الصديق الدكتور (بديع الكسم) فأرشدني إلى هذه الطبعة الجديدة، وتلطف الزميل الدكتور (ريمون طحان) بعونه في حصولي على نسخة منها، فلهما عميق شكري، وخالص ودي، وقد مكّنا لي من اعتماد هذه الطبعة في نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية» (ص٥٥).

كان ذلك قديماً، ولكنه لم يكن فريداً، فقد استمر وبقي حتى نهاية القرن المنصرم، وما برحنا نتبادل الرأي، وأفيد من نصحه حتى في ترجمتي كتاب الأستاذ الصوربوني (البيربايه) وعنوانه: «ما العقلانية»، وقد كان الدكتور (بديع) محبّذاً ومشجعاً، وقد أتممت الترجمة، ووُفقت لنشرها بعد أن جعلت العنوان باللغة العربية: «الثورات العقلانية». وأعترف بأنني اخترت هذه التسمية على أمل أن تجتذب قراءاً تسحرهم كلمة الثورة، وتشجيعاً للناشر لعل في البيع النادر استدراكاً لبعض التكلفة.

في الجامعة، جامعة دمشق، صعاب ظرفية تطال التعليم وتمتد إلى المعلمين. أقول إنها صعاب ظرفية، والظروف الطارئة دائمة التبدد والتبدل إلى الأفضل على نحو ما نتمنى كلنا بلا ريب.

من ذلك أن عدد طلاب قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية، وهو قسم شبه مفتوح للراغبين من ذوي درجات الثانوية اليسرى، كان عددهم كبيراً ذات عام. وكان الطلاب يُجرون امتحاناتهم في أكثر من مبنى كلية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الثكنة الشهيرة، وكان فريق منهم يجري الامتحان في مدرجات كلية العلوم الإضافية. وكنتُ أجول بين القاعات، فلاحظت كثرة من الأوراق البيضاء تُقدَّم بالسرعة الجائزة مشفوعة بمغادرة الطلاب أفواجاً. واتفق أن رأيت أستاذ المادة، وهي مقرر للأستاذ (الكسم)، فإذا هو ساخط من الكآبة والاستهجان. وكان سبب عزوف كثير من الطلاب عن الإجابة زعمهم أن السؤال مرفوض، مادام لا يتقيد بحرفية نص الكتاب المقرّر، وقد جاء في سؤال الدكتور (بديع) ما يدعو إلى شيء من المناقشة بعد الفهم والتدقيق.

أسف الدكتور (بديع) للموقف، وأبى إلا أن يقدم استقالته على الفور، ولكنني سارعت، على الفور أيضاً، إلى شرح نظرتي إلى الواقعة، مؤكداً له أولاً أن عدداً من الطلاب ليسوا بالفعل طلاباً بالمعنى الصحيح. فهم لا يداومون، وقد لا يعرفون من قاعات الدراسة إلا قاعة الفحص، حتى أن منهم من كان يسألني عن أستاذ المقرر، وذلك ساعة الامتحان، والأستاذ يقف في زاوية أخرى من القاعة، وسط المراقبين! ثم إنّ جلَّ المتعلمين في تلك الحقبة ما كانوا يأبهون إلا بما يضمن لهم النجاح، لعلهم يتحلون بنيل شهادة جامعية ذات يوم، وبعضهم لاستنفاد فرص تأجيل خدمة العلم بحسب الأنظمة المرعية. ولا يكره كثير منهم كرم التوجيه الجامعي بأن يكون الفحص وفق الكتاب المقرَّر، وأن تكون أسئلة الفحص متعددة، وأن تشمل نصَّ الكتاب كله، والشرط الأهم هو أن تراعي سوية الطالب المتوسط الذكاء..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تلك عوامل إقناع ألحفت عليها لأثني الدكتور (بديع) عن عزمه، لعله يهضم ما لابد منه، إلى أن تحين الظروف..

من ملامح سلوك الدكتور (بديع) في الجامعة احترامه النظام بكل دقة وإخلاص. أجل إن بعض التفاصيل كانت تُدهشه وتنفّره، ولكنه ظلَّ على الدوام يتمسك بأدق الواجبات العلمية والتعليمية. ويكفي أن أذكر انفراده دون سائر الزملاء الأساتذة في الكلية، بأن أحضر إلى مكتبه في غرفة القسم ساعةَ منبّهٍ صغيرة وضعها نصب عينيه ليرقب الوقت بدقة. لماذا؟ لأن التعليمات الجامعية التي رافقت نظام التفرغ أوجبت على أعضاء الهيئة التدريسية الدوام في مكاتبهم عدداً من الساعات لاستقبال الطلاب، ولو لم يقصدهم أحد، أو لدراستهم الشخصية، بحيث يكون مجموع دوام الأستاذ المتفرغ لا يقل عن تسع وثلاثين ساعة أسبوعياً. وقد لا أغلو البتة إذا أكّدت أن هذا الرجل الرائع وحده كان يتمسك بدقائق الواجب، لأنها واجب، ولأنه دوماً من جديد، (سقراط) الجديد...

* * *

أما هواجس الدكتور (بديع) الوطنية والقومية فهي أنصع من أن توصف، وأقوى من أن تتخاذل وتضعف، ولا أحسب أنه بثها عامداً في محاضراته، كما هي الحال لدى تسييس التدريس. ولا أنسى البتة ذات مرة، وقد غادرنا مبنى الثكنة في البرامكة، وهبطنا الهوينى شطر الحبوبي، حيث كنا نقيم في جوار عفوي، وأشرفنا على (دار السلام) وكانت الإذاعات تشدو بأخبارها من كل مكان... وإذا به يتوقف متسائلاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

باستهجان تنديد كمَن يفضح تمويه ماكرين فيقول: طيب!.. وماذا ينتظرون دون إعلان الوحدة؟

إنها بالطبع الوحدة العربية التي لم تفتأ لحظة من حياته عن أن تراود أعظم مطامحه وأحلى أمانيه. وفي سبيل الوحدة العربية، وتيسير سبلها الثقافية سافر مرة إلى القاهرة، ومرات إلى الجزائر وسواها، ولولا اقتناعه بهذا الواجب القومي لما غادر دمشق، وهو خصيم السفر والترحال، ولاستجاب لرجاء طلابه في حفل تكريم أقاموه لوداعه في نادي اتحاد الطلاب، وكأنهم يتمنون لو أمكن له البقاء...

* * *

دُعيت، كما دعي الدكتور (بديع)، غير مرة، للنشر في (دار طلاس). وكان مدير الدار السيد (إكليل أتاسي) يحرص على مشاركة الجامعيين في مناشط عمله. ولما تطرق الحديث إلى مساهمة الدكتور (بديع) في مثل ذلك كان تعليقي الواضح: أوصيك، على عهدتي، بطباعة أية أملية تحمل اسم الدكتور (بديع)، ومثلاً عن (هجل)، دون تلكؤ ولا تنقيح، فهي بذاتها كفالة جودة وإتقان.

وأخيراً، إليكم هذه المعلومة القديمة.

عرفتُ الدكتور (بديع)، أول مرة، حين أتيحت لي فرصة الاستماع إلى بعض تدريسه في ثانوية اللاذقية. وقد حرص مديرها باعتزاز على أن أشاهد تدريس الفلسفة ثمة، وكنتُ في زيارة عروس الساحل مع زملاء في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لجنة اختيار طلاب للدراسة في (المعهد العالي للمعلمين).. لقد كان الدكتور (بديع) يعلّم تلاميذه أن الفلسفة سؤال أكثر منها جواباً أو أجوبة.. وهي، بعبارة أخرى، الذهن الحي، ولا حياة لذهن إلا بالفكر، بممارسة التفكير، وما من تفكير حق إلا التفكير الحر.

ذاكم معلم المنطق في الثانوية، ثم أستاذ المنطق في كلية الآداب، وهو إمام المنطق في المجتمع الوسيع الذي ضمَّ مَن عرفه، وأعجب به، وكان منطقه عبقرية أصيلة لا تتكرر. كان (بديع) سؤالاً، وكان فلسفةً، وسيبقى إبداعَ بديعٍ، ومُلهِم فلسفات، أكثر منه جواباً جامداً محدوداً.

رحمك الله يا (أبا نزار). ما أهزل القول حين يتفجر القلب، ويحترق الفؤاد.

يا غائباً لا يغيب!.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net